المحور:التعليم والعلماء في الجزائر خلال العهد العثماني.

المحاضرة– السياسة التعليمية في الجزائر خلال العهد العثماني:

لم يكن من ضمن سياسة السلطة العثمانية بالجزائر الاهتمام بالتعليم، فقد كانت همومها حينئذ منحصرة في المحافظة على الاستقرار السياسي، والدفاع عن الحدود وجمع الضرائب(المستحقات المخزنية)[1]، وتركت المشاريع العمرانية والخدمات الاجتماعية للمبادرات الفردية أو لرعاية المؤسسات الخيرية[2].

أما المداخيل المعتبرة التي كانت تحصل عليها السلطة العثمانية بالجزائر، فلم تكن تستعمل في نشر التعليم وترقيته وتنمية الثقافة وتنشيطها، ولكن في أجور الجنود كثيري القلاقل والثورات، وفي المعدات الحربية، وخصوصا البحرية، وفي توزيع الهدايا والعطايا على السلطان العثماني وموظفي دولته، ولم تكن هموم الدولة بأية حال منصرفة إلى تطوير المجتمع اقتصاديا وثقافيا، وإذا فعلت شيئا من ذلك أحيانا فعن طريق الدين[3]، ونذكر كمثال عن ذلك: محمد الكبير باي الغرب، وصالح باي في بايلك الشرق، في النصف الثاني من القرن 12هـ، فقد اهتما بالتعليم وبذلا جهودا كبيرة من أجل النهوض به، ولكن هذه المحاولات كانت فردية ولا تقوم على خطة مدروسة، ولا تخرج في محتواها من تبعية التعليم للدين، فالمدارس التي أسساها كانت تابعة للمساجد والكتب التي حبساها كانت تلبية للشعور الديني عندهما وليس للشعور العلمي، ومن جهة أخرى كانت محاولتهما قصيرة الأمد فلم تثمر، وكانت تهدف إلى جلب الشهرة والمدح، ولا سيما عند الباي محمد الكبير، وهكذا لم تكن خدمة التعليم هي الهدف الرئيسي عند هذين البايين أيضا[4].

---

[2] لزغم، **مرجع سابق**، ص.62.

[3] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص ص.313-314.

[4] نفسه، ص.314.

كان التعليم في الجزائر العثمانية يقوم على جهود الأفراد، والمؤسسات الخيرية التي تتغذى من الأوقاف، فانتشر التعليم في الجزائر انتشارا واسعا خصوص(التعليم الأولي)، إذ لم يكن يوجد بها من لا يعرف القراءة والكتابة، أي المستوى الأدنى من التعليم، وذلك لكثرة الكتاتيب التي لا يكاد يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية، وهذا ما أبهر جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني[1].

ومهما كان الأمر، فإن الأسرة الجزائرية المسلمة هي التي كانت تتحمل أعباء التعليم، فالآباء ولو كانوا فقراء، كانوا حريصين على إرسال أبنائهم إلى الكتاب، وتعلم المبادئ العامة وحفظ القرآن الكريم، وكثيرا ما كان ذلك عن طريق التنافس أيضا، لأن الجيران كانوا يتنافسون على الخير كما يوصي الدين، وهو هنا مباهاة بعضهم البعض بذلك، وقد كانت الأوقاف والنفقات الخاصة هي التي تتكفل بتغذية التعليم وليس ميزانية الدولة[2].

وهناك أحكام مختلفة على موقف العثمانيين من التعليم في الجزائر، فإذا حكمنا من شكوى بعض العلماء ومن ملاحظات بعض الرحالة المسلمين والكتاب الأوروبيين وجدنا صورة التعليم عندئذ كالحة وغير سارة، فبالإضافة إلى كون العثمانيين لم يسنوا سياسة لتشجيع التعليم، فإنهم كانوا يستولون على الأوقاف المخصصة له من قبل أهل الخير، ويستعملونها في أغراض أخرى، كما أنهم كانوا يتغاضون عن الوكلاء والعلماء الذين يأكلون أموال الأحباس ظلما [3]، فقد أخبرنا الشيخ عبد الكريم

---

[1] لزغم، **مرجع سابق**، ص ص.63-64.

[2] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص. 315.

[3] نفسه، ص ص.315-316.

الفكون(الحفيد) عن الصورة السيئة التي وصلت إليها الأحباس في مدينة قسنطينة من سلب وبيع، حيث لم يسلم من ذلك حتى أوقاف الحرمين الشريفين[1].

وعلى الرغم من كثرة المدارس والكتاتيب في الجزائر خلال العهد العثماني، إلا أنها كانت تقدم تعليما قاعديا، أما التعليم الحي والتعمق في المسائل وتكوين الرأي المستقل، أو ما يمكن تسميته بالتعليم الثانوي والتعليم العالي، فقد كان قليلا، فالواقع يشهد على أنه لم يكن في الجزائر كلها جامعة واحدة بالمعنى المتعارف عليه، فقد خلت الجزائر العثمانية من مؤسسات للتعليم العالي، توحد نظم التعليم، وتحافظ على مستواه، وتعكس نشاط واتجاه العلماء [2]، مما جعل بعض الباحثين مثل –محمد بن عبد الكريم–يحكم على أن الثقافة بالجزائر أصبحت رهن فراش الاحتضار تلفظ نفسها الأخير، إذ لم يوجد بها ما يشبه جامع القرويين بفاس أو جامع الزيتونة بتونس، أو جامع الأزهر بالقاهرة[3].

ومما سبق ندرك أنه لم يكن للعثمانيين في الجزائر سياسة للتعليم ولا خطة رسمية لتشجيعه والعناية بأهله وتطويره وتوجيهه وجهة تخدم المصالح الإسلامية العليا من جهة والمصالح الوطنية الجزائرية من جهة أخرى، بل أنهم تركوا الحبل على الغارب، فركد التعليم ونضبت موارده وضاق مجاله وافتقر رجاله وانحط مستواه، ومما زاد الأمر سوءا في هذا الميدان تسرب الخرافات إلى عقول المعلمين والمتعلمين، بل كان بعض المدرسين يضلون الناس بدل أن يهدوهم، حتى أن بعضهم كان يستعمل الشعوذة سلما لكسب المال والجاه لدى أرباب السلطة[4].

---

[1] الفكون، **منشور الهداية**، ص.88.

[2] لزغم، **مرجع سابق**، ص ص.64-65.

[3] محمد بن عبد الكريم، **المقري وكتابه نفح الطيب**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص.41

[4] سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج.1، ص. 321.